

سلوة القلوب و الأنفاس في تخليصها من عبودية الوسواس الخناس

تأليف الفقير إلى عفو الله تعالى

أبو ياسر عبد الرحيم محمد مفليح

الحمد لله الذي شرح صدور عباده، و أعانهم على ذكره و شكره و حسن عبادته، و أكرمهم بإنزال قرآن له فضل عظيم بحفظه و دوام تلاوته. نحمده سبحانه و نستعينه و نستغفره، و نعوذ به من شرور أنفسنا و سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، و من يضل فلا هادي له.

و نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الولي الحميد، و نشهد أن محمدا عبده و رسوله شهادة حق و توحيد. بلغ الرسالة، و أدى الأمانة، و نصح الأمة، و أكد على صلاح الظاهر و الباطن أشد تأكيد. صلى الله عليه و سلم و على أصحابه و من استن بسنته و اقتفى أثره إلى يوم الوعيد.

أما بعد،

فتزكية النفس هي الغاية الأسمى التي وضعت لأجلها آداب و تعاليم الدين، و لأجلها من الله عز و جل على المؤمنين، فبعث فيهم محمداً صلى الله عليه و سلم الصادق الأمين، فقال سبحانه و تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿١٦٤﴾ آل عمران: 164.

و هي مجموعة الخطوات و السلوكات التي على الفرد أن يتبعها لتحقيق تلك الغاية. فهي ما يكتسبه الإنسان كاستجابة لتلك التعاليم الربانية، و تفعيل الحياة في ضوء ذلك التصور و

السلوك. و هي غاية عضدتها نصوص الكتاب و السنة، بَيَدَ أَنَّ المناهج المتبعة للتوصل إلى ذلك تضاربت حولها الآراء، و اختلفت بشأنها العقول و الأفهام، كل يدَّعي الوصل بليلى.

فلا صلاح لهذه الأمة إلا بما صلح به أمر أولها، و هو ما سيعيد لها مجدها، و يقود في النهاية إلى بناء نفوس زكية و مجتمعات صالحة، تسير و هذا النهج حَذَوُ القدة بالقدة.

فلطالما راودني حلم الكتابة حول زكاة النفس و طهارة القلوب، و قد وجدت في كتاباته رحمه الله بخصوص ذلك مرتعا خصبا يساعدني على التخلص من سجن نفسي و هواها، إلى دار السعادة الأبدية، إلى العبودية الحقة لرب العالمين سبحانه و تعالى.

و قد آثرت الحديث في هذا الموضوع لشدة الصراع الدائر بين الحق و الباطل، بين النفس الأمارة بالسوء و الهوى من جهة، و النفس اللوامة و المطمئنة من جهة أخرى. و ما أحوجنا لطبيب نفس خبير، في عصر تشتد الحاجة فيه إلى التسليح برصيد روحي سليم، و عقل حكيم، يناهض ما أفرزته بعض التيارات المنحرفة التي أسست مناهجها بعيدا عن الاستمساك بالعروة الوثقى ما بين مُغالٍ و مُفَرِّطٍ.

و سأحاول جاهدا بفضل الله تعالى أن يكون الموضوع على فترات حتى تعم الفائدة، و نصل جميعا إلى بر الأمان صحبة النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين.

النفس في القرآن الكريم متحركة و محرّكة، و ذات طاقة في الخير و الشر، و لها في ذلك أعاجيب. فلقد ورد ذكرها في التزييل (295 مرة) اختلفت خلالها معانيها، حيث جاءت بمعنى الروح، و بمعنى ذات الإنسان، و جاء بعضها للدلالة على أن الإنسان مكلف، بل إن بعضها جاء دالا على ذات الله عز و جل. و المعنى الذي يهمننا هو ما جاء في القرآن مصورا إياها ككينونة تحتشد فيها الطاقات الدافقة المحركة، و تدور فيها المعاني التي بإمكانها توجيه حركة السلوك البشري، أو بالأحرى، القدرة على تزيين ما تريد للقلب.

يقول الإمام الغزالي رحمه الله في الإحياء :

« و حركات الجوارح ثمرات الخواطر... و سرائر القلوب هي مغارس الأفعال و منابعها ».

فمعرفة النفس هي السبيل الأقوم لتحصيل الخلق الفاضل، و يبقى على الإنسان تمييز ما يزكي النفس و ما يفسدها فيدفعها نحو الفلاح، باتباع سبيل المؤمنين و ذلك هو طريق النجاح.

و قد تعرض ابن القيم رحمه الله للحديث عن طبيعة النفس البشرية في كتاب " الروح "، و خصص لهذا الغرض المسألة التاسعة عشرة، حيث ناقش أقوال الفقهاء و الفلاسفة حول ماهيتها. و خلص في الأخير إلى أن الإنسان هو البدن و الروح معا.

يقول رحمه الله :

« ... و السادس : أنه جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس، و هو جسم نوراني علوي خفيف حي متحرك، ينفذ في جوهر الأعضاء، و يسري فيها سريان الماء في الورد، و سريان الدهن في الزيتون، و النار في الفحم » .

و قد ساق الأدلة النقلية و العقلية من النصوص القرآنية و الأحاديث النبوية الدالة على إبطال الأقوال و المذاهب المخالفة لذلك في مائة و ستة عشر دليلاً. و انطلق عليه رحمه الله في تحديد أنواع النفس، الذي حدد القرآن الكريم مسبقاً أنواعها الثلاث؛ فهي حسب ابن القيم نفس واحدة، تأخذ اسمها انطلاقاً من الصفات التي تميزها. فتسمى مطمئنة باعتبار طمأنينتها إلى ربها، و صدق اللجوء إليه بفعل أوامره و اجتناب نواهيه.

يقول رحمه الله :

« و التحقيق أنها نفس واحدة، و لكن لها صفات، فتسمى باعتبار كل صفة باسم، فتسمى مطمئنة باعتبار طمأنينتها إلى ربها بعبوديته و محبته و الإنابة إليه، و التوكل عليه و الرضا به، و السكون إليه، فإن سمة محبته و خوفه و رجائه منها قطع النظر عن محبة غيره و خوفه و رجائه... فالطمأنينة إلى الله سبحانه حقيقة ترد منه سبحانه على قلب عبده تجمععه عليه، و ترد قلبه الشارد إليه، حتى كأنه جالس بين يديه يسمع به و يبصر به، و يتحرك به و يبطش به، فتسري

تلك الطمأنينة في نفسه، و قلبه، و مفاصله، و قواه الظاهرة و الباطنة، تجذب روحه إلى الله، و يلين جلده و قلبه و مفاصله إلى خدمته و التقرب إليه .

و تسمى لومة للومها صاحبها على تقصيره و تفريطه في جنب الله، مع بذله الجهد في ذلك. و هي نوعان :

« لومة ملومة : و هي النفس الجاهلة الظالمة التي يلومها الله و ملائكته.

و لومة غير ملومة : و هي التي لا تزال تلوم صاحبها على تقصيره في طاعة الله، مع بذله جهده؛ فهي غير ملومة. و أشرف النفوس من لامت نفسها في طاعة الله و احتملت ملام اللاتمين في مرضاته؛ فلا تأخذها فيه لومة لائم، فهذه قد تخلصت من لوم الله .

« و أما النفس الأمارة، فهي المذمومة، فإنها التي تأمر بكل سوء، و هذا من طبيعتها إلا ما وفقها الله و ثبتها و أعانها، فما تخلص أحد من شر نفسه إلا بتوفيق الله له... فالشر كامن في النفس، و هو يوجب سيئات الأعمال... فنسأل الله العظيم أن يعيذنا من شرور أنفسنا، و من سيئات أعمالنا .

و حسب ابن القيم رحمه الله، فإن النفس بذاتها أمارة بالسوء لأنها خلقت في الأصل جاهلة ظالمة، و العلم و العدل طارئ عليها بإلهام ربها، فإذا لم يلهمها رشدًا ظلت على غيها و عاشت في سجن ظلمها، تتخبط خبط عشواء في جهلها، فلولا رحمة الله عز و جل و فضله على المؤمنين من عباده، ما زكى منهم من أحد أبدا.

يقول رحمه الله في الزاد:

« و المقصود : أن الله سبحانه اقتضت حكمته أن يمتحن النفوس و يبتليها، فيظهر بالامتحان طيبها من خبيثها، و من يصلح لموالاته و كراماته، و من لا يصلح، و ليمحص النفوس التي تصلح له و يخلصها بغير الامتحان، كالذهب الذي لا يخلص و لا يصفو من غشه إلا بالامتحان؛ إذ النفس في الأصل جاهلة ظالمة، و قد حصل لها بالجهل و الظلم من الخبث ما يحتاج

خروجه إلى السبك و التصفية. فإن خرج في هذه الدار، و إلا ففي كير جهنم. فإذا هذب العبد و نقي، أذن له في دخول الجنة » .

و قال رحمه الله في الإغائة :

« فإذا أراد الله سبحانه بها خيرا جعل فيها ما تزكوه به و تصلح الإرادات و التصورات، و إذا لم يرد بها ذلك تركها على حالها التي خلقت عليها من الجهل و الظلم » .

اللهم آت نفوسنا تقواها و زكها أنت خير من زكاها أنت وليها و مولاهـا.

يتبع